شعراء معاصرون :

العاطفة الدينية في شعر محرم

للشيخ محمد رجب البيومي

— ١ —

منذ انتقل إلى جوار ربه الشاعر الكبير المغفور له الأستاذ أحمد محرم وأنا أشعر بحماس يدفعني إلى الكتابة عن عاطفته الدينية ، فقد قرأت الكثير من روائعه المبدعة ، فلمست فيها روحاً حية متوثبة ، وكان للنغم الساحر الذي تردده قيثارة الشاعر روعة عجيبة ، فهو يرتفع بالقارئ إلى أفق رحب فسيح ترفرف فيه أجنحة الفضيلة والعزة ، ويذكره بما كان للأمة العربية في عهدها الغابر من مجد باذخ قامت دعائمه على البسالة والكرامة فيحرك العاطفة ويوقظ الشعور ...

والحق أن دراسة محرم رحمه الله من ألزم اللوازم في عصر ماجن مستهتر ، فقد عصفت بروس بعض الشعراء في الشرق والغرب فوازع خبيثة تدفعهم إلى الفوضى الخلقية والتحلل الإباحي ، زاعمين أن الشاعر الحق هو الذي ينساب وراء غرائزه وميوله ، وأن العبقرية توقع صاحبها في مزالق مريبة ، بل إن منهم من يتعمد الوقوع في البغي ليكون أحد هؤلاء العباقرة المتحللين ! ! وكم جر الاستعمار الغاشم على أبناء الشرق فضائحه وغوائله ، فزين لهم الخبيث ، وبغض إليهم الحسن الجميل ! .

نشأ الشاعر في بيت ريفي متدين فقد كان والده حريصاً على تثقيفه وتهذيبه ، فأحضر له في دور الطفولة من قام بإرشاده وتوجيهه لحفظ القرآن ودرس النحو والعروض واللغة ، وأكب على استظهار النصوص الأدبية ، ففتحت أكمام شاعريته الغضة ، وبدأ يتغنى بمقطوعات بدائية تنبيء عن ملكة واستعداد ، وقد اتجه بنوع خاص إلى الثقافة الدينية فقرأ الحديث الشريف ، وطالع السيرة المطهرة ودرس التاريخ الإسلامي المجيد ، ثم عكف على قراءة الصحف والمجلات فألم إلماماً مفيداً بسياسة أمته ووطنه ، وشاهد في ميعة صباه ما يدبره المستعمرون من مكايد خاتلة للعالم الإسلامي ، فتأوه لمصابه الفادح ، وأطلق لشاعريته العنان فتغنى بمجد الإسلام وحث على استرجاع ما فقده الشرق من عظمة شاهقة وجاه عريض .

وإذا كنا نعتبر محرماً شاعر العاطفة الدينية في عصره دون منازع فإننا نتخذ منه دليلا يبطل ما زعمه الأصمعي من أن الشعر في جملته مكسب صعب لا يسهل إلا في الشر ، وتلك دعوى زائفة وجدت مكانها في العقول لخلوات أنظار الشعراء عن الدعوة إلى المثل العليا ، والتسدح بالأخلاق الدينية الرفيعة ، وأنت تطالع الدواوين الشعرية فتجد ما قيل في المجون والخلاعة أضعاف ما قيل في التصون والاحتشام وبديهي أن الشاعر المتمكن المطبوع يستطيع أن ينظم — بقوة وإتقان — في شتى الأغراض التي تأخذ بمجامع قلبه ، وتسيطر على خوالج نفسه ، سواء كانت تتجه إلى الخير أو الشر ، فالدار إذن على قوة الشاعر وموهبته ، ومن يستطيع نظم الرقائق الفاتنة في الليل الدامس ، لا يعجزه أن يرسم الصور الساحرة للصباح الوضيء ، وها هو ذا محرم قد اندفع وراء عاطفته الدينية اندفاعاً حميداً ، فجاء شعره وذجاً حسناً للشعر المثالي الرصين .

ونحن حين نشيد باتجاه محرم وجهة الخلق والدين ، لا نعني بذلك أنه عقد في ديوانه فصولا خاصة بالدعوة الإسلامية ، ولكننا نؤكد أن عاطفته الدينية قد ارتسمت بوضوح في شتى الأغراض الشعرية التي تحدث عنها الشاعر الكبير ، فأنت تقرأ مدائحه ومراثيه واجتماعياته وسياساته فتجد كل بيت ينطق بإيمان قائله ، ويحدد الهدف الخلاق الذي يدعو إليه في حرارة ، وإذا رزق الشاعر إيماناً فلا بد أن يرتسم في مرآة شعره ، فهو إذا جال في إحدى سبحاته سيطرت عليه عاطفته المخلصة ، فوجهته أكمل توجيه حتى يصل إلى المرفأ الأمين .

وكنت سألت من أثق بهم من خلطاء محرم ورفقائه عن حياته وأخلاقه فمررت بما علمت من مروءته ونبله ، حيث كان يبذل ما يملك — على ضآلته — في معونة المستعين ، كما كان يحافظ على فرائض العبادة من صلاة وصيام . ثم هو إلى ذلك صفوح متسامح لا يؤاخذ مسيئاً بنقيصة ، ولا يميل إلى الجدال والمثرثرة في غير طائل . ويمكننا أن نقول إنه اتخذ كتاب الله إماما يأتم بأوامره ،

ويحيد عن نواهيه ، وإنه ليعلن ذلك فى صراحة إذ يقول :

أقول لصاحبيّ — وعاهداني — كتاب الله بيننا وبيني
فكونا صادقين ولا تخونا فإن لنا لإحدى الحسنيين
ولست ببائع نفسي وديني ولو أوتيت ملك الشرقين
لهـــذا سلطة ولتلك أخرى فمـــا بالي وبال السلطتين
سأملأ هـــذه الغبراء مجداً وأترك أهلها صفر اليدين
على التاريخ بعد الموت حق وعنـــد الله يوم الدين ديني

وقد أباح الشاعر لنفسه أن يتمدح بمروءته وتقواه ، ولسنا نؤاخذه فى ذلك فقد نشأ فى عهد إباحى ، وجد فيه من يتشدقون بآثامهم المخزية ويجاهرون بمعاصيهم المندية ، فإذا ألم بهم داع إلى الحق لووا رءوسهم ساخرين ! ! فلا مناص من أن يجاهر المهذب العف بشمائله ، ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . ولقد صوّر الشاعر أخلاقه ، وشرح عواطفه تشريحاً صادقاً حين قال :

من أيادى الله أنى لم أخن عهـــده الأونى أروم المغنما
راودتنى عصـــبة عن حقه فأبى الحق الكريم المنتمى
عفة تقذف بى عن همـــة تقذف النسر وترمى الرزما
لا أرى الندر وإن جشمنى صرف دهر ظـــالم ما جشما
مرحباً بالبؤس فى أســـبابه عفة اليائس عن أن يأثما
ما يريد الدهر من مستهـــل ما يهول الخطب إلا افتحما

وسنوجز الحديث إيجازاً ، فنترك كلام الشاعر عن نفسه ونميل بشىء من التحليل إلى بعض الأغراض الشعرية التى جال فى حلبتها جولات موفقة . وفى رأيى أن قصائد عرم السياسية والاجتماعية والتاريخية تكفى الباحث المنصف فى تكوين رأى صادق فى عاطفته الإسلامية ، ونبدأ بالحديث عن سياسياته فنقول :

— ٢ —

كان للخلافة العثمانية فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن ظل يتبسط على الدول العربية المتجاورة ، ولئن تضاءل النفوذ الاستعمارى فى شتى بقاع الشرق حقباً متوالية ، فقد كان أبناء هذه الدول ينظرون إلى الخليفة العثمانى نظرة عالية ، فيرون طاعته فرضاً أكيداً يوجبه الإسلام وتمليه العقيدة ، ورغم ما اشتهر به عبد الحميد من العسف والجور والخروج على شرعة الإنصاف فقد لهج بمدحه كثير من الأدباء والشعراء ، إذ كانوا يصرفون النظر عن شخصه ويرون الخليفة فكرة رمزية تقيم العدل وتجدد معالم الدين ، وقد تفانى عرم — جرياً وراء عاطفته الدينية — فى محبة الأتراك فمنح خلفاءهم الود وهاجم أعداءهم بقذائفه الصائبة . وأنت تقرأ مديحه فى السلطان العثمانى فتجده ينظر إليه من نافذة العقيدة ، فيذكره بمركزه الدينى ومقامه الإسلامى ثم يدلف إلى تقديم نصائحه التقليدية فيحث على الوحدة القومية ، وينادى بالجامعة الإسلامية ، وكان للمعارك الحربية التى خاضها الجيش العثمانى صدى تردد فى نفس الشاعر ، فسجل الوقائع اليونانية ، ونددّ بمن يهددون « الرجل المريض » بالثورات الداخلية والفتن الخارجية ، وقد اعتمد الشاعر على خياله البعيد ، فبالغ فى مديح الجنود الأتراك مبالغة تدعو إلى العجب ، وكأنه أراد أن يثوى الروح المعنوية فى الشعوب الإسلامية لجوف الحقائق تجويفاً يناقضه الواقع ، وهو بلا شك مشكور لغيرته وحميته ، وإلا فهل كان الجيش التركى فى رمقه الأخير كما قال فيه ؟

لهم كل يوم غارة تصبح العدى وأخرى تضىء الليل والليل فاحم
إذا نفروا لم ينفروا عن ثمالها ولم يصحروا عن سيلها وهو عارم
بنوها الألى لا يرهبون بها الردى إذا اهتزمت فى حافتيها الزمازم
إذا أقدموا لم يثنهم عن مغارهم غداة الوغى أهوالها والمآزم
معمون فيها يحولون إذا اعتزوا نمتهم قريش فى الحفاظ وهاشم
أولئك أبطال الخلافة تحتمى بأسيافهم إن داهمتها المظالم
هم الماتنوها أن يقسم فيئها وأن تستقى بيضاتها والمحارم
هم الناس لا ما تنكر العين من أذى وتوشك أن تنشق منه الحيازم
وما الملك إلا ما أطالت وأثلت طوال العوالى والرقاق الصوارم

ولقد ظل الشاعر على إخلاصه للدولة العثمانية ، يمجد فى أعلامها ويسهب فى الثناء على مواقفها ، ويعتذر الثوار الداخلين فيذكرهم بمسئوليتهم الفادحة أمام الله إذ يشعلون الفوضى بلا موجب ، ويوقدون الفتنة فى ربوع مضطربة تعصف بها الريح الهوج .

وكم كان الألم لاذعاً فى نفس عرم حين طوى بساط الخلافة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وقد أفزعه اضطهاد الكماليين

لرجال الفقه والتشريع ، ونقل إليه ما ارتكبوه من غلو فاحش ، حيث وأدوا العاطفة الدينية في وقت أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر . وأذكر أنه نظم في سقوط الخلافة ملحمة طويلة طبعت وحدها في كتاب مستقل ، وكان يهمني أن أستشهد ببعض أبياتها الدامية ، لولا ضياعها من يدي . ولا أدل على حماس الشاعر للأتراك العثمانيين من قصيدته المؤثرة في رثاء والده ، فقد نسي مصابه الشخصي ، وغالبته عاطفته الدينية فترك الأنين والدموع واندفع إلى الحديث في الخلاف القائم بين العثمانيين والإنجليز ، وقلت أن تقدر مبلغ شعور مسلم غيور ، هاجت عاطفته الدينية فأنسته ما وقع فيه من أسى قاتل ، وحزن مرير

هذا وسياسيات محرم تتسم بطابعها الإسلامي فدائحه في العزيز حث وتذكير بالآداب الخلقية ، ورجوع بالأمة إلى ماضيها المجيد ؛ وقصائده في الحرب العالمية الأولى تنديد بالحضارة الغربية المتوحشة ، وتصوير صادق للمسارح الدولية التي تراق فيها الدماء وتتناثر عليها الأشلاء . هذا إلى مقارنة معتدلة بالحضارة الإسلامية في عهدها الزاهر ، وكيف كانت منارة تشع على العالم بضوئها الوهاج . وحين قامت الحرب الطرابلسية الإيطالية صرخ محرم صرخات مؤرقة ، ولم يشأ أن يقصر شعره على البربرية الإيطالية المتوحشة ، فيكتفي برسم الفظائع الدامية التي ارتكبها المحتلون بالشعب الأعزل المستكين ، بل غمره شعوره الديني في طوفان جارف صخاب ، فتمثل البيت الحرام يرتجف رعباً بمكة ، ويثرب ذات النور الطهور تولول جازعة ؛ ثم استصرخ الغر الميامين من أبطال الإسلام ، فتساءل عن علي بن أبي طالب ، وتطلع إلى خيل الله يقدمها صاحب اللواء ، وتذكر ابن الخطاب في فتوحاته الشامخة وحنّ إلى المقاديم من فهر ومضر وقريش . اسمعه يقول:

أين ابن عم رسول الله يطفئها ... حرباً على كبدي من نارها شرر
أين اللواء وخيل الله يمّمها ... عمرو ويقدم في آثاره عمر
أين المقاديم من فهر ومن مضر ... ومن قريش وأين السادة الغرر
أين الملائكة الأبرار يقدمهم ... جبريل يسبق الهيجا ويبتدر
أين الوقائع تهتز الدروش لها ... رُعباً وتنتفض البيجان والسرر
أين القياصر مقهورين لا صلفا ... نأى بجانبهم عنا ولا صعر
أيطرب البيت أم تبكي جوانبه ... حزناً ويعول فيه الركن والحجر

ويح الحجيج إذا حانت مناسكهم ... ماذا يرى طائف منهم ومعتبر
أين الحماة وقد ضاعت محارمنا ... أين الكفاة وأين الذادة الغير

وهكذا كان التذكير بالماضي سلاحاً باتراً في قبضة الشاعر ، والحق أنه آتى أكله وأثمر في حينه فوثقت الأمم العربية بماضيها المجيد ، بعد أن حاول الاستعمار الغاشم أن يبرزه في صورة نكراء .

وطبيعي أن يكون ندب الماضي البهيج مقروناً بالتحسر على الحاضر الأليم؛ فالصورة الجميلة الشرقة لا تكمل لها أسباب الروعة إلا إذا قرنت بصورة دميمة بشعة ، وحالة الشعوب الإسلامية قد بلغت من الهوان مبلغاً يستدر الدموع ، فكانت الشكوى من انحطاط الشرق ميداناً فسيحاً تجول فيه الأقلام حتى ليجوز لنا أن نعتبره عنصراً هاماً من عناصر الشعر الحية في نهضتنا الحديثة . ومعلوم أن الشعور بالنقص هو الدافع الأول إلى الكمال والتقدم ، فلا مناص إذن من الاعتراف بالواقع الأليم . وكم تضرع محرم إلى ربه راجياً أن يأخذ بيد أمته إلى طريق البر ، وكم سهر الليالي الطويلة يتأمل فيما خيم عليها من غواش حالكة ؟ وكم وقف بين اليأس والأمل لا يدري أيبتسم الدهر للشرق أم تكون الأخرى فيظل الكابوس الأوربي جاثماً فوق صدور المسلمين ؟ ! عواطف مشتجرة متناحرة خلقتها الروح المتوثبة في نفس الشاعر فصيرته في حيرة من أمره إذ يقول :

تفاقت الخطوب فـــلا رجاء ... وأخلفت الظنون فلا وثوق
تطالعنا السنون مروعات ... ونحن إلى أعلتها نتوق
يمر العهد بعـــد العهد شراً ... فأين الخير والسعد الأنيق
نوائب روّع التـــنزيل منها ... وضج القسر والبيت العتيق
بنا من ضارب الخدثان ما لا ... يطيق مضاءه العضب الذليق
كأن جراحه في كل قلب ... شفاه الحنية أو شـــدوق
رويد اليوم والغربان فيـــنا ... أما يقفي النحيب ولا النعيق
وددنا القواعب لو عميـــنا ... وصدت من مصامعنا الخروق
أمض قلوبنا داء دخيـــل ... وهمّ في جوانحنـــا لصيق
وجف الريق حتى ود قوم ... لو أن السم في الأفواه ريق
ورح بالنوائب مســـتطير ... يعاوده التميز والشهيق

ولولا هذه الصيحات المدوية ما استيقظ أهل الكهف في